انعكاسات الخطاب الجندري في الأدب النّسويّ العُمانيّ
رواية "الباغ" لبشرى خلفان نموذجا

د. ناصر جمعة السّيابي
كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، الرّباط
abualrraha@hotmail.com
المملكة المغربية

الملخّص:

تناولنا في هذه الدّراسة "انعكاسات النوع الاجتماعي في الأدب الخليجيّ عامّة، والأدب العُمانيّ خاصّة، من خلال دراسة رواية "الباغ" للرّوائيّة العُمانيّة "بشرى خلفان". وقد كان اختيارنا لدراسة هذا الأثر دون غيره، أنّه يمثّل تصويرا واضحا وصريحا لنقد الانعكاس في الأدب النسوي؛ بما هو انعكاس يُرسّخ لمفهوم الفوارق الاجتماعيّة والثّقافيّة بين الرّجل والمرأة. في انتصار واضح لمفهوم المجتمع الذّكوريّ، وسلطة العادات والتّقاليد العربيّة. إنّ رواية "باغ" تُعدُّ نموذجا لمناهضة ومحاربة هذا من الأدب، بلغة أنثويّة مخصوصة، و بأساليب فنيّة متميّزة، ينصهر فيها التّاريخيّ بالأدبيّ والعاطفيّ بالاجتماعيّ؛ لتُولّدَ لنا نصّا فنيّا مميّزا يعالج قضايا المرأة وتطلّعاتها.

الكلمات المفاتيح: الجندر، النّصّ المتخيّل، لغة أنثويّة، المجتمع الذّكوريّ، انعكاس الخطاب الجندريّ.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

Abstract:

This study aims to explore the reflections of gender discourse in Gulf literature in general, and Omani literature in particular, through an analytical reading of the novel Al-Bagh by Omani novelist Bushra Khalfan. The choice of this text stems from its clear and explicit depiction of gender discourse criticism, as it exposes the mechanisms through which this discourse reinforces social and cultural distinctions between men and women, while revealing the dominance of patriarchal structures and the authority of Arab customs and traditions. Al-Bagh stands as a prominent example of resistance against gendered discourse, employing a distinctly feminine language and refined artistic techniques in which historical, social, emotional, and psychological dimensions interweave seamlessly. Through this synthesis, the novel emerges as a sophisticated artistic text that engages deeply with women's issues and their aspirations for freedom and equality

Keywords: Gender, the imagined text, feminine language, patriarchal society, reflection of gender discourse.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

مقدّمة:

كثيرا ما مثّل موضوع المرأة وقضاياها موضوعا للبحث، والتّحليل، والنّقاش، على عكس موضوع الرّجل. وربّما كان ذلك عائدا إلى تأرجح قضايا المرأة بين المطلبيّة والتّحقيق. فبالرّغم من ترسانة القوانين التّشريعيّة، والمعاهدات الدّولة، وما تمّ إنشاؤه من منظمات تعنى بالمرأة، إلاّ أنّها مازالت حبيسة نظرة مجتمع ذكوريّ يستنقص منها، ويهمّش دورها في الحياة العامّة مقارنة بالرّجل.

يعدّ الانتشار الواسع للأعمال النّسويّة الأدبيّة، دليلا على صوت المرأة المنادي برياح التّغيير. فالقضايا الحارقة من حريّة، ومساواة، والاستقلاليّة التّامّة عن الرّجل، التّي تدافع عنها المرأة في أعمالها الفنيّة آن لها أن تتحقّق، في ظلّ ما تشْهدهُ المجتمعات العربيّة من تطوّر. كان المجتمع الدّوليّ ولايزال مدافعا عن المرأة وحقوقها، محافظا على ما أنجزته من مكاسب؛ يظهر ذلك من خلال عقد "مؤتمر المكسيك" عام 1975م، الّذي كان عامّا دوليّا للمرأة، وبداية لما عُرف "بـ. . . .عقد المرأة" من خلال الدّعوة إلى بذل الجهود الدّوليّة للمساواة بين المرأة والرّجل..

إنّ مفهوم السّرد الأنثويّ أخذ يتدعّم شيئا فشيئا، حتّى بات جنسا أدبيّا خاصّا له منهج ومفاهيم ومواضيع خاصّة به دون غيره. وكان حظّنا راعيا لمقاومة الإنعكاس الجندريّ؛ حتّى صار من المفاهيم اللّسانيّة المعاصرة، الّتي تناولته بالدّرس والتّحليل بمختلف أبعاده. فهي تتحقّق وتتقصّى جميع المواقف الرّجاليّة (الذّكوريّة) من المرأة وقضاياها.

نأمل من خلال هذه الدّراسة، أنّ تكون إسهاما بسيطا للكشف عن بعض من الإنعكاس الأدبي في رواية "الباغ"، كمحاولة لنقد العقليّة النظام الأبوي المتجذّرة في المجتمعات العربيّة عامّة والخليجيّة خاصّة. ثمّ التّوجّه لإصلاح ومحو الصّورة المستنقصة من المرأة وقدرتها في المشا ركة الفعليّة والفعّالة في الحياة العامّة في المجتمعات العربيّة.

يمكن أن نصف مفهوم الجندر، بأنّه مفهوم ذاتيّ متغيّر من فرد إلى آخر. فلكلّ شخص انعكاسه الخاصّ به، وهذا الجندر متأثّر إلى حدّ كبير بالتّوجّه المعرفيّ والثّقافيّ للشّخص نفسه. ويتمّ الكشف عن الأبعاد الجندريّة للشّخص الواحد انطلاقا من مواقفه التّعبيريّة، باستعمال اللّغة أو غيرها من الأدوات التّعبيريّة: كالفنون، والمواقف الفلسفيّة، والاجتماعيّة، والسّياسيّة، وغيرها.

صارت الأعمال الفنيّة تُعبّر بمعيار "الأنوثة" و"الذّكورة" مع بزوز الأدب النّسويّ وتغلغله. فقد صارت المرأة العربيّة قادرة على إنتاج نصوص إبداعيّة على غاية من الجودة الفنيّة، متشبّعة بمعالجة ونقد مشاغل المرأة والمجتمع ككلّ. فلطالما كانت هذه المهمّة حكرا على الرّجل دون غيره.

لتقصي انعكاسات الخطاب الجندريّ في رواية "الباغ"، اعتمدنا على منهج استقصائيّ جمع بين المناهج اللّسانيّة: كاللّسانيّات الإدراكيّة، واللّسانيّات الجندريّة، وذلك للحصول على بيانات معمّمة، والّتي لا تكتمل ولا تتحقّق إلاّ بمساعدة المنهج التّفسيريّ، والتّحليل الجزئيّ، والتّحليل السّياقيّ للنّصّ المتخيّل، بالاستعانة بالسّرد النّسويّ، وبما ألّف حوله من دراسات غربيّة خاصّة الأعمال الرّوسيّة والألمانيّة المترجمة إلى العربيّة.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

1. "الجندر" والأدب النّسويّ.

1.1الأسبقيّة الغربيّة في تناول ظاهرة الجندريّة.

كانت الأعمال الغربيّة سبّاقة إلى تناول مفهوم الجندر وتحليله. فكان لزاما علينا الاطّلاع على بعض الأعمال المترجمة الّتي تناولت مفهوم "الجندريّة" في الأدب النّسويّ منها مؤلّف "روبرن لاكوف" Lakoff.R. language and Woman 1975 .S Place. في اللّغة الانجليزيّة، و"لويس بيش" .Pusch. L. Das Deutsche als Mannersprache 1984. و"سانتا ترومل بلوتز" 1982 .Tromel-plotz S. Frauensprache – Sprache Veranderung في اللّغة الألمانيّة.

إنّ من بين المواقف الّتي قدّمت رؤية واضحة للأدب النّسويّ، نذكر موقف الكاتبة الألمانيّة الشّهيرة "كريستا وولف" إذ قالت: " في أي خانة يمكن أن يتحدّث أحد عن وجود الكتابة الأنثويّة؟ تستحقّ المرأة فقط وبسبب العوامل التّاريخيّة، والبيولوجيّة المختلفة أن تُصور العالم الخارجيّ بشكل مختلف... يتحمّلن الحقيقة، ويعبّرن عنها بطريقة أخرى. إذن تنتمي بواسطة قانونهنّ الاجتماعيّ المرأة بالتّأكيد على الثّقافة الثّانيّة، لأنّهنّ يوقفن جهودهنّ الشّاقة لتحقيق التّكامل في نظام الحكم المجنون."[1]

هذا، فيما يهتمّ بالنّثر أمّا فيما يخصّ الشّعر فتقول: "إيلين شوالتر" متحدّثا عمّا يُسمّى "بالشّعريّة النّسويّة" واستنتجت ثلاثة أنماط أساسيّة من الأنماط "الكتابيّة النّسويّة"، وهي:

- تمثيل "المؤنّث" الّتي تعبّر عن تقليد الشّرائع الغالبة/ التّقليد الأدبيّ البطريركي[2]، واستيعاب المعايير "الجندريّة" الفنيّة المكّونة للفن والأدوار الاجتماعيّة.

- تمثيل "النّسويّة" المواصلة في التّغيير والمحتجّة على المعايير "البطريركيّة" السّائدة وثقافة قيم اللّغة المدافع عن حقوق الأقليّة، بما في ذلك طلب استقلاليّة المرأة.

- تمثيل "الأنوثة" كهويّة خاصّة نسويّة تختلف عن قوانين الذّكور في العرض والكتابة. [3]

إنّ اعتبار أمر الدّفاع عن حقوق المرأة حكرا عليها هي فقط، وبالتّالي خاصّة بالأعمال النّسويّة دون غيرها أمر خاطئ. فقد تكون الأعمال الرّجاليّة أكثر تعبيرا وجرأة في التّعبير عن مشاغل المرأة وقضاياها وتطلّعاتها، وبالتّالي مقاومة الخطاب الجندريّة ستكون مهمّة رجاليّة بامتياز وهذا ما تناولته الكاتبة "ماري روتكنين" في مقالها "الجندر والأدب" حيث طرحت مشكلة الأنثويّة والكتابة الأنثويّة.

2.1 محاور الاهتمام الأدب النّسويّ.

إنّ من بين أكثر المواضيع تناولا في الأدب النّسويّ نذكر:

- السيرة الذّاتيّة الأنثويّة.

---

[1] Forster. H.Deutsche Literaturgeschichte. 1999.

[2] [2] لبطريركية هي منصب وسلطة البطريرك، وهو لقب يشير إلى رئيس أساقفة ذو صلاحيات واسعة في الكنيسة

[3] انظر: Showalter. 1985

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

- تصوير الحياة العامّة بين النّاس ومكانة المرأة فيها بالنّظر إلى علاقتها بالعائلة، والأولاد، والأصدقاء، ومثلث الحبّ، والخيانة، والغيرة...
- البعد الاجتماعيّ في السّرد الأنثويّ.
- العنف المجتمعيّ المسلّط على المرأة عامّة والزّوجة خاصّة، وتداعياته فيما بعد على الأطفال.
- اللاّ-مساواة والتّمييز السّلبي في المجال المهنيّ بين المرأة والرّجل.
- الدّفاع عن الأدب النّسويّ ومعارضة ما يحمله الأدب الرّجالي من أفكار جندريّة وإبراز الخبرة الأنثويّة في مجالات كانت حكرا على الرّجل كالفيزياء وعلم الفلك والفضاء ....

3.1 الجندريّة: رهان الأدب النّسويّ.

كان الأدب وما يحمله من أبعاد رمزيّة الحامل الأفضل، ووسيلة التّعبير المثلى للتّعبير عن شواغل المرأة تحت غطاء لغة فنيّة ينصهر فيها الواقعي، بالخيالي، والاجتماعيّ، بالاقتصادي، بالسّياسيّ. فكثيرا ما شكّل مفهوم الجندر مفهوما شائكا في المجتمعات العربيّة، خاصّة منها المجتمعات الأكثر تحفظا المتشبّعة بقيم الإسلاميّة الّتي تدافع نصوصها على مفاهيم تنتصر انتصارا صرفا للرّجل بترسيخ مفاهيم: القوامة، والإمامة، والعصمة، والولاية الحُرمة، والنّاقصات عقلا ودينا، وغيرها من المفاهيم الّتي لطالما اعتبرتها الأعمال الأدبيّة النّسويّة استنقاصا من قيمة المرأة. فهي مفاهيم تجاوزها الزّمن إلى زمن آخر صارت المرأة فيه مسؤولة مكلّفة راعية ليست مَرْعيّة، فاعلة وليست مفعولا بها.

يحقّ لنا أن نتساءل عن دور المرأة وإسهاماتها في الدّفاع عن حقوقها. أكان ذلك بلغة خاصّة و بأساليب فنيّة جديدة؟ هل نجحت المرأة في تأنيث اللّغة وتطويعها خدمة لقضاياها؟ ووفق أي مقاربة استطاع الأدب النّسويّ أن يحقّق العدالة بين الرّقابة الاجتماعيّة القاسيّة، والتّحرر الإبداعيّ المنشود؟ وهل نجح الأدب النّسويّ بالفعل في اقتراح وفرض موقع جديد للمرأة في الحياة العامّة، أم أنّه ظلّ رهين الكتابة الأدبيّة الإبداعيّة؟

من المتعارف عليه أنّ مرحلة فهم الخصم وتحليل خصائصه مرحلة تسبق مرحلة الهُجوم والمقاومة. وهذا عين ما قامت به الأعمال النّسويّة العربيّة والعُمانيّة خاصّة. ففهم الخطاب الجندريّ، وتحليله، وتقصي أبعاده ودلالته، هي مرحلة جدّ مهمّة. فهناك العديد من الأعمال الأدبيّة النّسائيّة الّتي شخّصت "الجندريّة" من خلال الفكر والعقليّة الرّجاليّة الذّكوريّة في مواقفها. إنّ التّخلي عن البعد الرّمزيّ الّذي يوفره الأدب كحضن آمن يجعل الكاتب أمام المساءلة القانونيّة والإحراجات الاجتماعيّة في استعمال مصطلح "الجندر". فلاتزال حريّة الرّأي والتّعبير تتخبّط في مهدها الصّغير. إنّ من الأعمال الأدبيّة الّتي لاقت رفضا مجتمعيّا نذكر أعمال الكاتبة الكويتيّة "ليلى العثمان".[1] فقد دافعت الكاتبة وأسّست في أعمالها – "الرّحيل" الصّادرة سنة 1979م و "في اللّيل تأتي العيون" الصّادرة سنة 1980م – لمبدأ "المغايرة". وهو مبدأ يحارب الإطار المبرمج اجتماعيّا وبيولوجيّا. وما يحمله من أبعاد ثوريّة. إنّ محاكمة بعض الأعمال الأدبيّة الرّمزيّة هو في حدّ ذاته مظهر من مظاهر الخطاب الجندريّ في المجتمعات العربيّة. كما نشير في هذا الصّدد إلى رواية "مسك الغزال" الصّادرة سنة 1988م للرّوائيّة اللّبنانيّة "حنان الشّيخ" الّتي كانت بمثابة رجّة مجتمعيّة لعلاقة الرّجل بالمرأة. فقد أسندت الرّاويّة مهمّة القصّ بأكمله إلى أربعة نساء من بطلات الرّواية. وجعلت من كلّ واحدة منهنّ مهمّة تعرية الحقيقة المجتمعيّة الذّكوريّة، انطلاقا من تجربتها الخاصّة. كانت شخصيّة "معاذ" – في هذه الرّواية – ابن الصّحراء

[1] للتوسّع أنظر كتاب: في ضيافة الرّقابة، منشورات الزمن، ط1، ص2001.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

والباديّة وما يمثّله من عادات وتقاليد اجتماعيّة صارمة كانت شخصية مهتزّة بلا معنى أمام عقلانيّة شخصيّة "سوزان" الأمريكيّة الّتي وضعت "معاذ" في أمام إشكاليّة ذاته وجسده.

2. مصطلح الجندر.

1.2 التّباين الموضوعيّ بين الجندر والجنس.

يُعرّف الجندريّة Gender بأنّه "النّوع الاجتماعيّ" أي التّمييز بين الذّكر والأنثى على أساس العامل الاجتماعيّ، لا على أساس الجنس البيولوجيّ وهذا التّمايز الجندري هو تمايز صنيع الثّقافة المجتمعيّة، وما تحمله من قيم ومبادئ وأخلاقيات، مثال ذلك أنّ نظرة المجتمعات الغربيّة للمرأة ليست هي بنفس النّظرة في المجتمعات العربيّة؛ أي أنّ الجندريّة تختلف من مجتمع إلى آخر ومن فرد إلى آخر حسب وعيه الخاصّ أولا، وحسب البيئة الّتي نشأ فيها وما تخلفه من أفكار ترْسخ في الذّاكرة الفرديّة. إنّ مفهوم الجندر يفرض نفسه بقوّة خاصّة في المجتمعات العربيّة، لما وجد فيها من حقل خصب للتّجربة والدّراسة، باعتبارها بيئة فتيّة مازلت المرأة فيها تناضل من أجل افتكاك حريّتها ومكانتها الاجتماعيّة جنبا على جنب مع الرّجل. قد تجلّى هذا المفهوم في مختلف الوسائل التّعبيريّة المتاحة وصار نظرة دُونيّة سوسيو-ثقافيّة.

يبدو الفرق واضحا إذن بين مفهوم الجندريّة ومفهوم الجنس Sex، الّذي يعرّف بأنّه ذلك الاختلاف البيولوجيّ الجسديّ بين الرّجل والمرأة. والحقيقة أنّ "الجندريّة" خرجت من المفهوم الضّيق للذّكر والأنثى إلى فضاء أرحب من ذلك، فأصبحت المرأة وفق المفهوم الجديد تقاس لا بنوعها الجنسيّ بل بنوعها الثّقافيّ؛ أي بنظرة المجتمع لها ومدى تفاعلها الإيجابيّ أو السّلبي مع بيئتها الّتي تعيش فيها. من الواجب علينا أن ننبّه في هذا الموضع إلى أنّ الجندريّة لا تدرس فقط الجندريّة وعلاقتها بالمرأة، بل تدرس كلا الجنسيْن والعلاقات الّتي يحتفظان بها. فالهُويّة الجندريّة للرّجل ينتصر لها المجتمع الثّقافيّ غير أنّ الهوية الجندرية المرأة تظلّ جوهر البحث في الدّراسات الجندريّة لكونها هي حاملة الإشكاليّة التّاريخيّة في ذاتها ولذاتها.

إنّ من بين المحاولات الجديّة في التّعامل مع الخطاب الجندريّ ومناهضته هي الدّعوة إلى تأنيث اللّغة. فقد حاول العديد من الكُتاب والأساتذة الفرنسيين سنة 2017م التّخلص من تصنيف "الجندريّة" على أساس الجنس "ذكر وأنثى" وذلك من خلال التّوقيع على عريضة لإلغاء التّذكير والتّأنيث بهدف التّخلّص من "سيطرة الفكر الذّكوريّ على لغة مُوليير" ذلك أنّ الصّفة في اللّغة الفرنسيّة – كما في العربيّة – تتبع الموصوف في التّأنيث والتّذكير. فقد نادت هذه الحركة بتأنيث اللّغة كمظهر من مظاهر المساواة، وقالت أنّ اللّغة تواضع اجتماعيّ قادر على التّغيير.

2.2"الجندريّة" المفهوم والسّياقات.

مثّل مصطلح الجندر مصطلحا مركزيّا في العديد من الاتّفاقيات الدّوليّة المهتمّة بالمرأة. ورغم أنّه كذلك، ورغم استعماله المكثّف، ظلّ المفهوم غامضا، زئبقيّا، ضبابيّا، لم يُعرّف بالشّكل الّذي يجعله قابلا للفهم والممارسة. وهذا ما سيفتح للمتلقي أشكالا دلاليّة أخرى كمحاولة لفهمه والتّعامل معه. وسيأخذ عنها معان أخرى ليست من جوهر معانيه وسيؤملون معانيه حسب السّياقات الاجتماعيّة المختلفة. وخير دليل على ذلك أنّ المفهوم يعرّف كلّ مرة بطريقة مختلفة من حقل معرفيّ إلى آخر.... بل أنّه صار أكثر انفتاحا وصار بوابة لمناهج عمل لعدّة قطاعات.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

عرّفت منظمة الصّحة العالميّة "الجندر" بأنّه الخصائص الّتي يحملها الرّجل والمرأة كصفات اجتماعيّة مركّبة لا علاقة لها بالاختلافات العضويّة والجسديّة. ولم تجِدْ الموسوعة البريطانيّة عن هذا التّعريف، فالجندر عندها هو ذاك المصطلح الّذي يفيد استعماله وصف الخصائص الّتي يحملها الرّجل والمرأة كصفات مركّبة اجتماعيّة، لا علاقة لها بالاختلافات العضويّة. إنّ الهويّة الجندريّة – بحسب الموسوعة البريطانيّة – ليست ثابتة بالولادة – ذكرا أو أنثى، بل تؤثّر فيها العوامل النّفسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة. فالإنسان بإمكانه اكتساب هويّة "جندريّة" جديدة حسب الظّروف الاجتماعيّة الّتي يعيش فيها وهذا نفس ما أشرنا إليه سابقا.

- الجندر والإيديولوجيّة.

ظهر مصطلح الجندر بداية، في الأعمال الأدبيّة النّسويّة أي في المجال الأدبيّ والأعمال الفنيّة الأخرى القريبة منه، ذات الصّلة به. ثمّ سُرعان ما تبنّاه الحقوقيون وصار مصطلحا حقوقيّا. هذا يعني أنّ الحاجة إلى مصطلح الجندر كان ضرورة حتميّة. كانت انطلاقته من كتابات المرأة نفسها، وتعبيرها عن الحيف والظّلم الّذي لحقها من جهة موقعها في الحياة العامّة، بوصفها أنّها ليست على قدر المساواة بالرّجل..

إنّ الهويّة "الجندريّة" تتجلّى من خلال الخطابات الرّمزيّة، الّتي تنتجها المرأة كالفن والأدب والخطابات الواقعيّة؛ كتوزيع المهام والمسؤوليات في الواقع الاقتصاديّ والاجتماعيّ.

من خلال ثنائيّة الرّمز والواقع، حاولت المرأة في أعمالها أن تظهر الهويّة "الجندريّة" الّتي يصنعها المجتمع ويبني من خلالها تصوّرا لها ولواقعها ولدورها في المجتمع والحياة بشكل عامّ.

سرعان ما تبنّت حقول معرفيّة أخرى مفهوم الجندر، فظهر ضمن حقول معرفيّة أخرى كالفلسفة، والتّاريخ، واللّسانيّات، والسّوسيولوجيا، وعلم النّفس وغيرها. وقد أخذ يتطوّر انطلاقا من سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين.

- الجندريّة والفلسفة.

كانت الجملة الشّهيرة للفيلسوفة الفرنسيّة "سيمون دوبفورا (1908-1986) الّتي وردت في كتابها "الجنس الآخر" "لا يُولد الإنسان امرأة، إنّما يُصبح كذلك" هي الانطلاقة الفعليّة لاستعمال مفهوم الجندر في الحقل الفلسفي. وهي جملة ذات أبعاد دلاليّة كبيرة تشير إلى دور المجتمع والثّقافة في خلق الشّروط الّتي تحدّد هويّة المرأة. وهذه الجملة هي إشارة منها إلى دور المجتمع والثّقافة في خلق الشّروط الّتي تحدّدُ هويّة المرأة.

- الجندريّة والنّصوص الحقوقيّة.

استعمل مصطلح الجندر لأوّل مرّة كمصطلح حقوقيّ مع تنظيم المؤتمر العالميّ للسّكّان والتّنميّة بالقاهرة سنة 1994م. ورغم تكرّر المصطلح أكثر من 50 مرّة في وثيقة هذا المؤتمر، إلاّ أنّه ظلّ غامضا قابلا لتأويلات مختلفة حسب فهم كلّ متلقٍ له. ذهبتْ الكثير من التّرجمات العربيّة إلى ترجمة مصطلح الجندر بأنّه "نوع الجنس"، أي أنّه ذاك الفارق البيولوجي بين الذّكور والإناث. وهذا ليس بمفهوم الجندريّة كما وضّحنا سابقا. إنّ هذه النّوع من الدّلالات قد يكون عائقا لفهم المصطلح فهما دقيقا من المصدر مباشرة. ثمّ تتالت استعمالات مصطلح الجندر في معاهدات واتّفاقيات أخرى منها: وثيقة مؤتمر المرأة في بيكين عام 1995م، الّذي ورد فيها المصطلح أكثر من 245 مرّة بنفس الغموض.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

إنّ هذا الاستعمال غير الدّقيق جعل الكثير من الدّول تطالب بضبط معنى وتعريفا واضحا للمفهوم؛ حتّى لا يختلط بغيره من المفاهيم الحقوقيّة الأخرى، وكي لا يظلّ عامّا ومفتوحا على كلّ الاحتمالات، الّتي قد لا تتماشى مع ثوابت ومعتقدات ومرجعيّات بعض الدّول خاصّة العربيّة الإسلاميّة منها. تعدّد فهم مصطلح الجندرية واختلف فيه المختلفون، فمنهم من يفهمه بأنّه: الجنسيْن، النّوع، الأنثى والذّكر، المرأة، النّساء، المساواة في الحقوق، عدم التّمييز في الأدوار.... وإنّ ما يجمع بين كلّ هذه المفاهيم السّابقة، أنّها تنتمي إلى نفس المنظومة القيميّة. إنّ "الجندريّة" رؤية دوليّة حول مفهوم المرأة والرّجل وطبيعة منظومة العلاقات الثّقافيّة بينهما. ليس علينا أن نفهم الجندريّة من زاوية نظر ضيقة وأن نعتبرها ذاك المجهود الّذي يُبذل للدّفاع عن حقوق المرأة ينعدم ويتلاشى بمجرد تحقّقه، بل أنّ مقاومة الخطاب الجندريّ مستمر بوصفته رؤية في قضايا أخرى في علاقة بالمرأة: كالإنجاب والزّواج، والعلاقات الاجتماعيّة...، والأخذ بيد المرأة كي تكون ذاتا مكتملة لذاتها وبذاتها.

3 الجندريّة والاستقبال العربيّ.

وجد مصطلح الجندر في المجتمعات العربيّة حقلا خصبا؛ لما تعايشه المرأة هناك من أشكال التّمييز بين الذّكر والأنثى. وكغيره من المفاهيم الغربيّة، تمّ التّعامل معه بالكثير من الحذر والاحتراز. وقد يكون مردُّ ذلك إلى الفكر المنادي بالتّصدي إلى كلّ فكرة عربيّة، خاصّة تلك الّتي تمسّ من تركيبة المجتمعات العربيّة ذات الخُصوصيّة الدّينيّة المحافظة. ليس هذا فحسب، بل أنّ الجندريّة كنظام صوتيّ واجه اعتراضات كثيرة من اللّغويين، ممّا جعل الكثير منهم يدعون إلى الاستعاضة عنه بتعبير "النّوع الاجتماعيّ"، بهدف تجاوز هذه الغربة الصّوتيّة. أمّا في الجانب الدّلاليّ، فيخشى أن يكون سببا في التّفكك الأسريّ والتّصدّع في العلاقة بين الرّجل والمرأة.

كلّ هذا الاحتراز والحذر من مفهوم "الجندر" صادر عن المجتمعات العربيّة بالأساس مقارنة بالمجتمعات الغربيّة. وهذا لا يثير استغرابنا حقيقة. رغم أنّ المفهوم صادر عن جمعيات ومنظمات دوليّة ذات صبغة إنسانيّة.

أما المرأة العربيّة، فقد وجدت في مفهوم "الجندريّة" ملاذا للنّضال؛ من أجل المساواة بينها وبين الرّجل، يجعل منها شريكة فاعلة في الحياة العامّة. كما اعتمدت على هذا المفهوم كمنهج لتحليل الخطاب السّياسيّ والإعلاميّ والإبداعيّ والدّينيّ والثّقافيّ...

أخذ مفهوم الجندريّة يتغلغل في المجتمعات العربيّة شيئا فشيئا؛ حتّى صارت طريقة إقحامه في كلّ المجالات الحياتيّة أمرا مُريبا، فزاد هذا من غموض معناه ووسّع من حقول اشتغاله. وأخذ انعكاسه يظهر على الحياة العامّة كمؤسسة الزّواج، والمناداة بالمساواة في الميراث، والمساواة في المناصب القياديّة في الدّولة، والإجهاض، واختيار جنس المولود، وزواج المثليين وغيرها من الأمور ذات العلاقة. وهي كلّها مفاهيم بدأت تنتشر في المجتمعات العربيّة.

أخذ مفهوم "الجندريّة" يحيد دلاليّا عن معناه الأوّل – المساواة – إلى معنى التّماثل التّام بين المرأة والرّجل وهذا أمر وُوجِه بالممانعة في الكثير من المجتمعات العربيّة.

لتدعيم مقاومة الخطاب الجندريّة، أنشأت المنظمات العربيّة الحقوقيّة الحكوميّة وغير الحُكوميّة العديد من مراكز البحث ودراسات المهتمّة بقضايا المرأة. كما أُنشأت تخصّصات علميّة أكاديميّة مثل ماجستير "الدّراسات النّسائيّة" عام 1997م التّابع لقسم اللّغة الانجليزيّة وآدابها بكليّة الآداب جامعة محمّد الخامس بالرّباط. واستنسخت بلدان عربيّة أخرى نفس التّوجّه. فانفتحت الكثير من الجامعات المغاربيّة والشّرقيّة على الدّراسات النّسائيّة في الدّرس الأكاديميّ والبحث العلميّ. وظهرت العديد من معاهد

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

الدّراسات النّسائيّة في العالم العربيّ التّابع للجامعة اللّبنانيّة 1973م، الّتي تسعى إلى إنجاز بحوث عن المرأة وقضاياه في العالم العربيّ. وصار للمرأة يوم وطنيّ وعيد يحتفل به ويُنظر فيه في شتّى المجالات المتداخلة في قضايا المرأة، فاتّخذت تونس من 13 أغسطس عيدا وطنيّا للمرأة، وهو عند المغاربة 10 أكتوبر، وعند المصريين 16 مارس...

1.3 ملامح الرّواية النّسائيّة العُمانيّة (التّاريخ، والسّمات، والاتّجاهات)

يُقال أنّ "الأدب وليد مجتمعه"، فالمجتمع هو الحاضنة الأساسيّة للأعمال الأدبيّة، تؤثّر فيه العوامل الاجتماعيّة والثّقافيّة في خلقه وإبداعه. فإمّا أنْ تكون حاضنة له، وإمّا أن تكون مهمّشة له. والأدب يحتاج إلى بيئة خصبة ينشأ فيها، فيترعرعُ وينمو، وللتّحسين من جودته يقول النّاقد يوري لوتمان yuri Lotman : " إنّ نشأة المكان الفنيّ جاءت نتيجة لظهور بعض الأفكار والتّصوّرات، الّتي تنظر إلى العمل الفنيّ على أنّه مكان تحدّد أبعاده تحديدا معيّنا، وهذا المكان من صفاته أنّه متناه، غير أنّه يحاكي موضوعا لا متناهيا هو العالم الخارجيّ، الّذي يتجاوز حدود العمل الفنيّ."[1] وبالفعل هو كذلك لو نظرنا إلى أكثر الرّوايات الأدبيّة نجحا، سنجد أنّها تنتمي إلى فضاء مكانيّ أرحب من غيرها فكلّما كان المكان أوسع، كان العمل أفضل، فهو الّذي تدور فيه الحوارات وتتحرّك فيها الشّخصيّات وما تنتج عنها من أعمال وأفعال...

لا يمكن أن نفهم كلمة البيئة في السّياق السّابق، بأنّها دلالة على المكان والفضاء الواقعيّ أو المتخيّل للعمل الأدبيّ بل المقصود بها أيضا البيئة الاجتماعيّة. فهي الأخرى مؤثّرة في العمل الفنيّ الأدبيّ. فتنوّع الشّخوص قد يثمر تنّوعا وازدهارا في الأعمال الأدبيّة. فكلّما كان المجتمع كبيرا، ومختلفا، وله من القيم والعادات والتّقاليد والخرافات الشيء الكثير كان الكتابات أكثر إبداعا. وكلّما كان المجتمع منفتحا على حضارات وثقافات أخرى، كلّما زاد من تنوّع المنتوج الأدبيّ كمّا وكيفا.

ما نلاحظه في البيئة العُمانيّة قبل سنة 1970م، هو أنّها كانت بيئة تتوّزع إلى بيئات جغرافيّة صغيرة، تكاد تكون منغلقة متقوقعة على نفسها في ترسيخ واضح لمفهوم القبيلة. ومن مميّزات هذه البيئة أيضا، أنّها كانت تفتقد إلى التّعليم كركيزة حضاريّة مهمّة. سرعان ما ظهرت بعد هذه الفترة نخبة من الشّباب العُمانيّ المثقّف، الّذي تلقّى تكوينا علميّا خارج حدود الوطن. مع هذه النّخبة الشّبابية بدأت تترسّخ ملامح الحياة الثّقافيّة والأدبيّة في عُمان وذلك بظهور بعض الأدباء والكتّاب والرّوائيين. وكانت البدايات ذُكوريّة بامتياز مع تغْييب وتصحّر للإنتاجات النّسوية تقريبا.

2.3 أسباب اختيار رواية "الباغ" نموذجا.

"الباغ" هي كلمة فارسيّة الأصل وتعني البستان. وتعدّ رواية "الباغ" من الرّوايات "لبشرى خلفان" الصادرة عن دار "مسعى" البحرينية بعد عدد من المجموعات القصصيّة. ويمكن أن نعتبر أنّ رواية "الباغ" من الرّوايات التّاريخيّة العُمانيّة الّتي تناولت فيها صاحبتها قصّة شقيقيْن "رايا" و"راشد" وتجربة الرّحيل عندهما من قريتهما هربا من الظّلم إلى العاصمة مسقط. تستعرض الرّاوية في هذا العمل جوانب من التّاريخ العُمانيّ وتصوّر الحياة الثّقافيّة والاجتماعيّة وتعالج من خلالها مفاهيم مركزيّة كالحبّ، والمصير، والوطن، والتّحديّات الّتي تواجه الأفراد والمجتمع ضمن سياقات تاريخيّة. تتسّم الرّواية بلغة رصينة واستخدام سلس للّهجة المحليّة العُمانيّة في الحوارات الّتي تخلقها الكاتبة بين شخصيات الرّواية. تسير الرّواية عبر حكايتيْن متوازيتيْن بين حياة "رايّا" الجديدة في "مسقط" وعلاقتها بنساء المجتمع ورجاله بعد زواجها من صديق أخيها "عليّ" وما ينشأ بينها وبينهم من علاقات وبين رحى الحرب الّتي تورّط فيها أخوها "راشد" وصار من جنودها. وهي حرب تدور في الجبال بين سلطان البلد

[1] حسنين، أحمد وآخرون، جماليات المكان، ط2، الدار البيضاء، 1988، ص68.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

والثّوار سواء فيما سُمي تاريخيا بحرب "الجبل الأخضر" عام 1954م أو ما تلاها من ثورة ظفار 1965م، والّتي انتهت بهزيمة الثّوار وتغلّب السّلطان عليهم وضمّ مناطق نفوذهم إلى سلطنة عُمان.

3.3الجندريّة في الرّواية العُمانيّة.

- اختلف المختلفون في الرّواية الّتي شكّلت بداية ظهور الكتابات النّسائيّة في عُمان. فمنهم من قال أنّها كانت مع رواية "الطّواف حيث الجمر" للرّوائيّة "بدريّة الشّحي" وأقرّ الكثير من النّقاد بأسبقيتها في الكتابة وأنّه لم تكن رواية أخرى قبلها. وهناك من قال أنّ روايّة "قيثارة الأحزان" لسناء البهلاني"، هي التجربة الأولى في الكتابة الرّوائيّة النّسائيّة، رغم أنّ معالمها الفنيّة لم تكن واضحة، وأنّها كانت تجربة متعثّرة من حيث البناء والأساليب الفنيّة. فلا يمكن إدراجها ضمن جنس الرّواية مقارنة برواية "الطّواف حول الجمر". والّتي نجد فيها توظيفا واضحا لمقاومة مفهوم الجندريّة، "إذ يجد القارئ في هذه الرّواية علو صوت المرأة الرّافض للصّمت ضدّ الأنساق السّائدة. كما يتّضح أنّ النّصّ يمثّل نضجا فنيّا ولغويّا وعمقا فكريّا.[1]

مهما يكن من أمر حول مسألة الرّيادة وأسبقيّة هذه الرّواية على تلك فالمهمّ عندنا أنّ الكثير من النّقاد يعتبرون الرّواية العُمانيّة لم تنشأ خجولة محتشمة متعثّرة بل كانت قويّة أسلوبا وطرحا للمواضيع ساخنة، وأنّها لم تُجاري الكتابة الذّكوريّة السّائدة. "كما أنّها لم تكن تجربة تقليديّة متخبّطة تغلب عليها ضحالة الفكرة وهشاشة تسلسل الأحداث، بل جاءت محمّلة بكلّ مقوّمات التّجربة الرّوائيّة النّسويّة النّاضجة. وكأنّها ولدت ولادة طبيعيّة لم تحرق معها مراحل الكتابة الرّوائيّة المفقودة."[2]

بعد الانطلاقة والنّشأة، أخذت الرّواية العُمانيّة النّسويّة تتشكّل شيئا فشيئا نوعيّا وعدديّا، وكانت جلّها تقريبا إن لم نقل كلّها تعالج قضايا اجتماعيّة، بهدف تحقيق نقلة نوعيّة في مجتمع قبليّ يقدّس الذّكورة. على غرار رواية "الطّواف حيث الجمر" "لبدريّة الشّحي" بالإضافة إلى روايات أخرى مثل "حفلة الموت" "لفاطمة الشّيدي" ورواية "الأشياء ليست في أماكنها الّتي تعد السّلالم" "لهدى حمد" ورواية "سيدات القمر" "لجوخة الحارثيّ"... بالإضافة إلى الرّوايات الّتي ناقشت الوضع الاجتماعيّة بمقاربة تاريخيّة منها رواية "دلشاد" و"الباغ" لبشرى خلفان. وكلّها جاءت بنفحات خطابيّة تقاوم الخطاب الجندريّ وتدافع على المرأة وقضاياها.

إنّ مساعي مقاومة الجندريّة كخطاب إقصائيّ كان يقوى ويضعف من رواية إلى أخرى ومن كاتبة إلى أخرى، فيغيب مرّة ويطفو على السّطح مرّة أخرى، يُصرّح به ويسكت عنه بنسب متفاوتة. إلاّ أنّ المفهوم كان واضحا أكثر من غيره في روايات "صابرة وأصيلة" و"جنون اليأس" و"حارة العور" للرّوائيّة "غالية آل سعيد"، فقد كانت هذه الأعمال تعجّ بقضايا المرأة: كالتّعليم ومقاومة المجتمع الذّكوريّ.

4. انعكاسات الخطاب الجندريّة في رواية "الباغ".

- المرأة والخطابات الدّينيّة.

لا نستغرب من وجود تلك النفثات الدّينية في الأعمال الرّوائيّة العُمانيّة. وليس هذا غريبا على مجتمع محافظ متمسّك بتعاليم دينه وشعائره. فالشّخصيّة الرّئيسيّة "رايا" الّتي خرجت مع أخيها في رحلة هجرة من القرية إلى المدينة، من العادات والتّقاليد إلى الانفتاح، من قيود المجتمع إلى حريّة الثّقافة... خرجت وقد ورثت عن والدها علم أصول الدّين الّذي تعمّد تعليمها القرآن

[1] اليحيائيّة، شريفة. قراءة في المشهد السّرديّ الرّوائيّ النّسويّ العثمانيّ، موت الحلم، (2010/1999) مجلة نزوى، 2015م، العدد 81، ص48.

[2] المرجع نفسه، ص47

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

والحديث فيما علّم أخاها أصول النّشاط الفلاحيّ وتهذيب النّخل والكدّ في الأرض. وقد تمحور الخطاب الدّينيّ بكلمات مباشرة من القرآن والأحاديث النّبويّة، أو باستخدام وصف للشّعائر الدّينيّة وطريقة ممارستها: كالصّلاة، والصّيام، وتلاوة القرآن. إذ تبدأ الرّواية بـ. . . "جمعتْ ما يملكان من تمر وقهوة، ولفت ثيابها على مصحفها، ربطت صرتها بثلاث عقد، وتمتمت بالدّعاء، ونفثت فيها حتّى لا يضيع، ولبست شيلتها، وانتظرته عند الباب ليجهز ناقته."[1] ما يمكن أن نستنتج كقراءة أولى لهذا المقطع في جانبه الرّمزيّ، أنّ تعليم المرأة واجب لا بل أنّه أولى من تعليم الرّجل في بعض الأحيان. فسلاح الرّجل جسده، وسلاح المرأة فكرها وعقلها. الشّيء الثّاني هي مسألة الهجرة والرّحيل، كأنّ الكاتبة تُشجع بطريقة غير مباشرة على فكرة الهجرة والرّحيل نحو مستقبل أفضل خاصّة إذا تعذّرت مقوّمات الحياة الكريمة، وانتشر الظّلم بين الأهالي. أرادت الكاتبة أن تبدأ روايتها بحرص الشّخصيّة على الحفاظ على تعاليم دينها وشعائره، وكأنّها تقول أنّ الدّين ليس حكرا على الرّجال دون غيرهم، بل للأنثى نصيب منه بل قد تكون أكثر حرصا من الذّكر عليه. وكأنّها تنتقدُ تلك الخطابات الدّينيّة الّتي يهمّش فيها الرّجلُ المرأة ويوظفها خدمة لمصالحه الضّيقة كالزّعامة والقوامة والعُلويّة....

- المرأة والمقاربة التّاريخيّة.

إنّ ما يميّز رواية "الباغ" هو بعدها التّاريخي الّذي جاء ممزوجا بالمتخيّل الرّوائي، فأضفى سحرا فنيّا مميّزا على الأثر. إنّ الحوض في التّاريخ العُمانيّ وطرح مواقف سياسيّة أو اجتماعيّة لها علاقة بالحياة العامّة العُمانيّة، يُعدُّ سابقة في التّناول والتّحليل. فتناول ما هو تاريخيّ هو تناول للوضع السّياسيّ بدرجة أولى. إنّ "الكشف عن المنظور الفنيّ للرّوائيّ من خلال القضايا التّاريخيّة الّتي طرحها، ومحاولة التّعرّف على مدى تفاعل الرّوائيّ مع قضيّة الوطنيّة والقوميّة العربيّة، والبحث عن الأبعاد الدّلاليّة وراء اعتماده السّرد التّاريخيّ."[2] وكم يكون التّاريخ صادقا مصورا للواقع عندما يسرد بلغة محليّة تقول الرّاوية: "وصلنا الخبر، السّلطان مالقى بد يماشي الأنجليز ووافق على الانسحاب، لكنّ القبائل تراها ما راضية، ردت بلدانها وصورة السّلطان وهيبته مكسورة في عيونها ترى الانجليز مابغوا يدخلو الحرب، أنت تعرف الحرب خساير، يموت فيها كثير من النّاس والعسكر، القنصل قال ما في فايدة من الحرب كان قدرنا نحل الموضوع بالتّفاهم."[3] استطاعت "بشرى خلفان" من خلال شخصيّة "راشد" أن تنقل لنا مختلف المراحل التّاريخيّة والسّياسيّة، الّتي مرّ بها عُمان لاسيما في حقبة الثّورة الّتي تولّى الجيش إخمادها والسّيطرة عليها ثمّ تولّى السّلطان قابوس الحكم عام 1970م وتوّجهه بخطاب مؤثّر إلى الشّعب العُمانيّ واعدا إيّاه بالرّقي والاستقرار والرّفاه.

يمكن أن نشير إلى اتّخاذ مثل هذا النّوع من الرّوايات من التّاريخ ذريعة، بهدف الوصول إلى أمثولة دراميّة تقول ما يحدث ليس ما يجب أن يحدث. فالرّواية تعدّ محاولة لتنظيم الحاضر وإقامة علاقة مع الماضي بهدف أن يكون الماضي في خدمة الحاضر وعاملا من عوامل اكتشاف واقعه."[4]

---

[1] رواية "الباغ" ص11.

[2] السّرد التّاريخيّ بين الواقع والمتخيّل في رواية "الجنرال خلف اله مسعود (الأمعاء الخاوية)، محمد الكامل بن زيد رسالة ماجستير من جامعة محمّد خضير بسكرة، كليّة الآداب، عام 2015م.

[3] رواية "الباغ" ص107.

[4] الرواية بين ضفتيْ المتوسّط، التعدد اللّغويّ في رواية سنونوات كابول لياسمينه خضرا، د.حسن كرومي، جامعة بشار، المجلس الأعلى للغة العربيّة، الجزائر ، 2011م، ص60.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

- التّعليم وجنس المتعلّم.

إنّ اختيار "بشرى خلفان" لشخصيّة "رايا" أن يكون التّعليم من نصيبها في حين يهمش الرّجل "راشد" هو نوع من النّقد العكسيّ. فلا يزاول التّعليم في المجتمعات العربيّة حكرا على الذّكر دون الأنثى. وباختيارها هذا تبثّ الرّاويّة نوعا من الحيرة الوجوديّة عند القارئ. ماذا لو كان التّعليم حكرا على الإناث دون الذّكور؟ أي شعور سيشعر به الرّجل عنها؟ وهذا ضرب للخطاب الجندريّ وأفكاره.

- المرأة والخطاب الفكري الإيديولوجي.

ما نعيشه من صراعات إيديولوجيّة قد تتحوّل إلى صراعات افتراضيّة نعيشها داخل الرّواية نفسها. فمن الممكن أن نجد في العائلة الواحدة أكثر من انتماء إيديولوجيّ وتكون المواجهة والكشف عن الخلفية الفكريّة لهذه الشّخصيّات عن طريق الحوار فيما بينها. وتظلّ المواضيع السّياسيّة هي الكفيلة بإبراز المواقف الإيديولوجيّة للأشخاص. مثال ذلك في رواية "الباغ" أنّ ابن "رايا" الشّاب المتعلّم الّذي سافر إلى الكويت لإتمام تعلّمه، وجد هذا معارضة من "أبو زاهر" الّذي يخاف على ابن صديقه من القوميّة العربيّة وسُطوع نجم القيادي المصري عبد النّاصر – ذاك الزّمن – تقول الرّاوية على لسان أبو زاهر: " ... هناك أمور كثيرة، وأنت تعرف الكويت فيها القوميين بو مع عبد النّاصر." ثمّ يجيبه الإمام: "...القوميين في كلّ مكان التّو، من البصرة لين الجزائر، والدّنيا كلّها عبد النّاصر."[1]

ويظهر الجانب الإيديولوجي أيضا في تناول "بشرى خلفان" لأكثر المواضيع حرقة في العالم العربيّ وهي: القضيّة الفلسطينيّة الّتي لطالما شغلت العالم العربيّ وهي القضيّة، الّتي لو فاز العرب بها لعادت إليهم أمجاد أسلافهم الأوّلين، وكان عبد النّاصر الزّعيم المصريّ من تعلّق عليه آمالُ الأمّة. تقول الرّاوية: "لم يكونوا يعرفون أكثر ممّا تبثه إذاعة صوت العرب، الّتي كان الجميع يتحلّق حولها ليلا نهارا، في مدن الوطن العربيّ وقراه.... منتشين بالنّصر القادم، فرحين بعودة فلسطين، الّتي باتت على مرمى غارة أو قذيفة، تتعالى الضّحكات ويكثر المزاح وتتحوّل الدّروس إلى فلسطين وعبد النّاصر، وكما الضّحكة في الإعلام وترفرف في سماء المدرسة علم فلسطين وعلم الكويت."[2]

إنّ تناول المرأة العُمانيّة لمثل هذه القضايا الإيديولوجيّة الحارقة في أعمالها الأدبيّة، يُعدّ سابقة نوعيّة، فيه لفت نظر إلى أنّها قادرة على إبداء موقف، وطرح قضايا إقليميّة ومحليّة تشغل الشّارع العربيّ وترهق تفكيره.

إنّ الرّوائيّ عامّة والرّوائيات خاصّة هم حمّلو قضيّة، يقول النّاقد "رزان إبراهيم" في إحدى ندواته: " أنّ عددا كبيرا من الرّوايات اقتربت من الرّواي "البلزاكي" الّذي يصدر أحكاما عن الوجود والعلاقات البشريّة، فلا يعود بإمكانه ونحن في غمار الحديث عن رواية ذات طابع سياسيّ أن ندعي روائيّا محايدا لا تحركه مقاصده الإيديولوجيّة، بما يحيلنا إلى شيفرة سرديّة عاطفيّة أو إجراءات روائيّة تنجح في بعض الأحيان في امتلاك القارئ، بل وجعله ممتثلا لقيم النّصّ ولو على حساب قيمه الخاصّة في بعض الأحيان."[3]

استطاعت بشرى خلفان أن تحلّل وتناقش قضايا مجتمعها العربيّ في حقبة زمنيّة مفصليّة في الوطن العربيّ، وكان ذلك من خلال الحوارات الذّكيّة ومن بين هذه الحوارات باللّهجة العُمانيّة المحليّة على لسان إحدى الشّخصيّات: "اسمعني، نحن ما انهزمنا

---

[1] رواية "الباغ"، ص226.

[2] المصدر نفسه، ص256.

[3] مقتطف من ندوة للناقد الأردني رزان إبراهيم، تحت عنوان: "الهمّ السّياسيّ في الرّواية العربيّة نقلها مجلد الغد في 21 أفريل 2017م.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

بسبه عبد النّاصر، لكنّك غضبان منه لأنّك مثل غيرك سويت منه ربّ، وحسبت إنّه بيديه النّصر، والعزة، والكرامة، والمستقبل، والتّحرير، كلّ شيء خليناه في ايد رجل واحد، هو يفكر عنّا وهو يقرّر عنّا وهو ينفذّ عنّا، نحن غرينا عمارنا، وحملناه فوق طاقته."[1]

- البطلة في الرّواية "الباغ".

تعوّد القارئ العربيّ في الكثير من الأعمال الرّوائيّة، على أن يكون البطل رجلا ذكرا صرفا وأنّ المرأة إلى جانبه أو من خلفه تمثّل دور الحبيبة أو الأمّ المضطهدة المضحيّة ... إلاّ أنّ الأمر يبدو مختلفا مع رواية "الباغ"، فقد جعلت الرّاويّة من البطلة شخصيّة انثويّة لا رجاليّة كما جرت العادة. فشخصيّة "رايا" الّتي الصّورة الموازية للمرأة العُمانيّة الّتي قامت بأدوار متعدّدة عبر تاريخ عُمان الحديث.[2] استطاعت الرّاويّة أن تشكّل من شخصيّة "رايا" شخصيّة نسائيّة فريدة لها خصوصيّة محليّة تماما مثلما لها امتداد إنسانيّ عميق جعل منها شخصيّة غنيّة رغم بساطتها. "رايا" الّتي نشأت في قرية صغيرة وكانت أمّا ثانيّة لأخيها "راشد" بعد رحيل أمّهما، والّتي تعلّمت من أبيها أصول الدّين وحلاوة ترتيل القرآن هي إنسانة طاغية الحضور في أجزاء الرّواية بحبّها ومعاملتها الحسنة لكلّ من صادف وجودهم في حياتها مثل شخصيّة "العودة" تلك السّيدة الّتي استقبلتها في مسقط بداية مكوثها فيها تقول الرّاوية عند وداعها: " جلست ريا في صدر الحوش تبكي "العودة" كما لو أنّها تبكي أمّها الّتي لم تخبر وجودها وموتها إلاّ من خلال الآخرين، تبكيها بكلّ ما فيها من خبرة الفقد ومرارة الغياب."[3]

رغم تحوّل الأوضاع وتبدّلها في محيط شخصيّة "رايا"، إلاّ انّها ظلّت ثابتتا على أمريْن من بداية الرّواية إلى آخرها وهما: تلاوة القرآن والمحافظة على تعاليم دينها ومحبّتها للآخرين وعطاها اللاّ-متناهي. تقول الرّاوية: " تحبّ رايا سورة مريم، تحبذها وتشعر بالياء الممدودة فيها تمتد من قلبها إلى حنجرتها حتّى تصعد خفيفة في انفراج شفتيها، وكأنّ كلّ كلمة دعاء وكأنّ كلّ مدّ فيه نداء لها...."[4] وتقول في تصوير علاقتها بأخيها راشد: "كانت طفلته، ثمّ صارت أخته، ثمّ كبرت، فصارت وكأنّها أمّه."[5] وتصورها في المشهد الأخير من الرّواية في حادثة سجن ابنها "زاهر" بتهمة انتمائه الشّيوعيّ تقول:" قلبها ثقيل يكاد حجرا يسقط في كلّ خطوة، وتكاد من فرط ثقله أن تفلته في الخطوة التّاليّة، ليتدحرج إلى ما لا نهاية. هل تعرف ذلك؟ هل تعرف أنّ سيرها إليه يأس ورجوعها يأس؟ تردد أسماء الله التّسعة والتّسعين كلّها كما ورثتها عن أبيها في الدّعاء، ثمّ تذكّر تهمته فيتردد قلبها."[6]

يقول النّاقد "جابر عصفور" في حديثة عن قدرة الرّاويّ على خلق شخصيات إيديولوجيّة رمزيّة محوريّة أسطوريّة شبيهة بتلك الشّخصيات المرتبطة إلى حدّ كبير بالشّخصيّات العالميّة في الرّوايّات الكلاسيكيّة، كالأمّ الخالدة في رواية "دستوفسكي". وهذا ما كان واضحا جليّا مع شخصيّة "رايا" في رواية "الباغ" يقول: " الرّوائيّ المعاصر، وإن سلّط منظار سرده على شخصيّات بسيطة وعاديّة من مختلف الشّرائح، فإنّه تحوّل إلى ما يشبه الأنتروبولوجي والباحث في التّراث الإنسانيّ، ينهل من الأساطير والرّموز وينفتح على مختلف الأشكال التّعبيريّة محطما الحدود بين الأجناس الأدبيّة."[7]

---

[1] الرواية ص 264.

[2] الأهرام اليوميّة، الجمعة، السنة 131، العدد 47716، التّاريخ، 28 يوليو 2017م.

[3] الرواية ص 232.

[4] الرواية ص168.

[5] الرواية ص94.

[6] الرواية ص332.

[7] الكبير السّدايسي، في الرواية العربيّة المعاصرة، مجلة رأي، 28، 05، 2015م.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

- النّظرة الإيتيقيّة للرّجل

استطالعت "بشرى خلفان" أن تكسر النّظرة الإيتيقيّة للرّجل. تلك النّظرة الّتي لطالما أحاطته بهالة من المقدّسات مقارنة بالصّورة الدّونيّة للمرأة. يظهر ذلك في اتّخاذ من "رايا" بطلة للرّواية دون "راشد" وجعلها الشّخصيّة المركزيّة والمحرّكة الأولى للأحداث والمحفّزة على عمل الشّخصيات والمتدخّلة في قراراتها المصيريّة. كلّ هذا، إحالة رمزيّة على أنّ المرأة قادرة أن تكون في المقدّمة، قادرة على الرّيادة والتّفاعل الإيجابيّ في المجتمع. ولعلّ نجاح الشّخصيّة الافتراضيّة "رايا" في رواية "الباغ" دليل على قدرة المرأة على النّجاح في حياتها العامّة الواقعيّة، جنبا إلى جنب مع الرّجل في المجتمعات العربيّة الّتي لطالما همّشت المرأة وانتصرت للرّجل.

- حياة في ظلّ غياب الرّجل.

تعمّدت "بشرى خلفان" في الكثير من أجزاء رواية "الباغ" أن تغيّب الرّجل عن المشهد المصوّر الّذي تنقله لنا. وجعلت من الشّخصيّة النّسائيّة حاضرة بمفردها لمعالجة موقف ما، أو البحث عن حلّ ما، أو اتّخاذ قرار ما، في ظلّ غياب الرّجل. فكم من مرّة تجد شخصيّة "رايا" بمفردها أمام مواجهة قرار مصيريّ؟ وبالفعل تنجح في تجاوزه بسلام باتّخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب. أليست هذه رمزيّة من الرّاوية على أنّ المرأة العربيّة قادرة على حُسن التّدبير والتّصرّف في ظلّ غياب تامّ للرّجل الّذي لطالما كان صاحب القرار الوحيد الأوحد؟

- الأسرة نواة اجتماعيّة

إنّ ما كانت تتهم به المرأة من أنّ حريتها ومكاسبها الاجتماعيّة والمساواة بينها وبين الرّجل في الحقوق والواجبات، كلّ هذا سيكون له الأثر السّلبيّ على العائلة والتّفكك الأسريّ لكنّ "بشرى خلفان" اثبتت عكس ذلك تماما فهذه "رايا" قادرة على مجاراة حياتها العامّة ومراعاة متطلّبات أسرتها لا بل أنّها استطاعت الموازنة بين هذا وذاك بطريقة عادلة منصفة. تنتقد الرّاوية سلطة الأب فتقول: "لماذا تعمدت إذلالي بالجهل يا أبي؟ هل كنت خائفًا مني كما يقولون؟ هل كان صدقًا ما يقولون أنني لو حزت العلم مع القوة لأشقيتك في البلاد؟"[1]

- الغربة والمرأة والوطن.

تشير الراويّة في الكثير من المواضع إلى مسألة علاقة المرأة بوطنها خاصّة عند تركيزها على معاناة شخصيّة "رايا" نموذج المرأة العُمانيّة، الّتي تجد نفسها مجبرة قصرا على مغادرة قريتها البسيطة والهجرة نحو "مسقط"، بعد ما عانته من ألوان الظّلم والحيف. هذه الغربة في المكان تخلق غربة في الذّات وتدفع الشخصية الى البحث عن وجود ذاتيّ آخر يتناسب مع تطلعّاتها الحالمة بالتّخلّص من قيود الجندريّة الأبويّة والمجتمع الذّكوري. فما الفائدة من وطن تعيش فيه المرأة مكبّلة مقيّدة بقوانين وعادات عرفيّة وعرقيّة بالية تحت غطاء ما يسمى بالعادات والتّقاليد.

تقول الراوية في وصف الغربة: "الغربة التي ليست من نصيب من يرحل فقط بل ومن يُتْرَكُ أيضًا، المتروك ليكون غريبًا في مكانه، وحيدًا رغم الكثرة وألفة ما حوله، لكنه لا يجد ما يعبّئ به تلك الفجوات التي يتركها الغياب، تلك الحفر العميقة المجوفة في القلب."[2]

---

[1] الرواية، ص96.

[2] الرواية، ص125.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

- التفرقة العرقيّة والطّبقيّة الاجتماعيّة:

مازالت المجتمعات العربيّة تعاني من مثل هذه القضايا رغم تعارضها مع جوهر القيم الإسلاميّة. هذا ما جعل الكاتبة تستحضر في روايتها مواقف الظَلم والجور تقول: "الجبابرة لا يأتونكم من الخارج، أنتم تلدون الجبابرة، من أرحام هذه الأرض يخرجون وينسلون ويفسدون."[1] تقول أيضا منتقدة الوضع الاجتماعيّ: "هذه بلاد لا تقبل الضعيف، ولا تحترم المحتاج، هذه بلاد ظُلام يا أبي، الجبابرة لا يأتونكم من الخارج، أنتم تلدون الجبابرة، من أرحام هذه الأرض يخرجون."[2]

خاتمة البحث وأهمّ الاستنتاجات:

استطاعت الرّوائيّة "بشرى خلفان" أن توازن بين مختلف المرجعيات الثقافيّة من: دين، وتاريخ، وعادات وتقاليد ... في رواية "الباغ" خدمة لقضايا المرأة العُمانيّة وشواغلها. فقد حقّقت في روايتها هذه تماسكا لافتا للنّظر عبر صياغة حكاية ارتكزت على التّاريخ واهتمت به باعتباره أحد أهم الوسائل لمعرفة الحاضر وفهم تفاصيله. إنّ القارئ للرّواية سيلاحظ نوعا من المراوغة الفنيّة تتخفى تحت حرفيتها العاليّة في التّخطيط لما يُقال عبر عناصر السّرد باعتمادها على لغة فنيّة رمزيّة موحيّة سلسة. وقد كشفت الرّواية عن عدّة جوانب مهمّة في علاقة بانعكاسات الخطاب الجندريّ منها:

- أنّ الخطاب الجندريّ هو وليد الظّروف الثّقافيّة والحضاريّة في مجتمع ما. وأنّ الجندريّة مفهوم متحوّل دلاليّا من مجتمع الى آخر ومن زمن إلى آخر. فأفراد المجتمع الواحد مطالبون بتعديل أفكارهم ومعتقداتهم وأساليب معيشتهم وكذلك أنواع المعرفة لديهم لتواكب المتغيّرات من حولهم.

- ضرورة تعديل نظرة المجتمع إلى المرأة العربيّة عامّة والخليجيّة خاصّة بوصفها شريكة حقيقيّة للحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة جنبا إلى جنب مع الرّجل.

- "الجندر" لم يعد ذاك الحقل المعرفيّ، وإنّما أدمج في مختلف مظاهر الحياة ليصبح جزءا من الحياة العامّة بفضل جهود الأعمال النّسويّة التّي تحاول جاهدا إخراج تلك المفاهيم وتحويلها إلى وعيّ يعيد فهم وقراءة التّاريخ بمنظور جديد.

- الكشف عن قضايا الجندر والاتّجاه النّسويّ في تفسير الواقع الاجتماعيّ للمرأة العُمانيّة في ظلّ الخصوصيّة الثّقافيّة للمجتمعات الخليجيّة.

- أثبتت الدّراسة أنّ استحداث مفاهيم ثقافيّة جديدة كالجندر أثر تأثيرا إيجابيّا وإن كان بشكل غير مباشر في دور المرأة ممّا عزّز وغير صورتها ومكانتها ووضعيتها في المجتمع.

[1] الرواية، ص250.

[2] الرواية، ص159.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المصادر والمراجع:

- أبو نضال (نزيه): "تمرّد الأنثى في رواية المرأة العربيّة وبيليوغرافيا الرّوايّة النّسويّة 1885-2004"، المؤسسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، ط1، 2005.
- الأخرس (محمد صفوح): "إيديولوجيا الجسد: رموز الطّهارة والنّجاسة"، دار السّاقي لبنان، ط1، 1997م، ص02.
- إدريس (عبد النور)، "النقد الجندريّ/تمثلات الجسد الانثويّ في الكتابة النّسائيّة، فضاءات للنّشر والتّوزيع، تونس، 2013.
- تحريشي (محمّد)، "قراءات في الخطاب الرّوائيّ"، لندن، ط1، 2001.
- بو فلافلة (محمّد): "سيميائيّة الخطاب السّرديّ العُمانيّ، رواية سيدات القمر للأديبة جوخة الحارثي نموذجا"، المكتبة العربيّ للمعارف، 2018م.
- خضر (حيدر): "مفهوم الجندر دراسة في معناه ودلالته وجذوره وتياراته الفكريّة"، مجلة الاستغراب، العدد 16، من ص283-295.
- خضير (ضياء)، "الأبيض والأسود في السّرد العُمانيّ ونقده"، الانتشار العربيّ، بيروت، ط1، 2015م.
- خلفان (بشرى): "الباغ"، منشورات مسعى للنّشر والتّوزيع، 2016م..
- الدّرمكيّة (عائشة)، "كتاب سيميائيّة النّصّ الثّقافيّ في عُمان"، مؤسسة بيت الغشام للنّشر والتّرجمة، مسقط، ط1، 2013م.
- السّامرائيّ (فليح)، "فضاءات الادب العثماني الحديث: التّشكل السّرديّ والاستهلالي في رواية سيدات القمر، لجوخه الحارثي"، جمعيّة الكاتب والأدباء، مسقط، 2023م.
- الطّائي (عزيزة): "الخطاب السّردي العُماني/الأنواع والخصائص (1939-2010)، المؤسسة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت، ط1، 2019.
- عتنا (ياسين): "مراجعة كتاب: من متغير الجنس إلى النّوع الاجتماعيّ"، مجلة تجسير، المجلد الأوّل، العدد الثّاني، ص150-155.
- عصفور (جابر): "الباغ"، جريدة الأهرام، العدد 47716، السنة 141، 2017م.
- عنصر (العياشي): "الأسرة في الوطن العربيّ: أفاق النّحول من الأبويّة إلى الشّراكة"، مجلة عالم الفكر، المجلد 06، العدد 03، يناير مارس، ص01-45.
- الكندري (محسن): " الرواية في عمان/ النشأة والتّطوّر، الحكي والمحكي في الرواية العُمانيّة"، المنتدى الأدبيّ، مسقط، ط2، 2011.
- المعمري (يوسف): "قراءة في مضمرات عليّ المعمريّ الرّوائيّة/ دراسة سيميائيّة تأويليّة"، دار الفرقد، دمشق، ط1، 2017.
- مناد (سميرة): "صورة المرأة في المخيال الاجتماعيّ"، المجلة الحوار الثّقافيّ، المجلد 02، العدد 02، ص 111-115.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/